بصر عيد وفاء النيل

متى نتحكم فى نهرنا ؟

للأستاذ وديع فلسطين

قديماً قالوا « مصر هبة النيل » ، وما كانوا بذلك يمزحون أو يلقون الكلام على عواهنه ، وإنما قرروا حقيقة أثبتت الأيام صوابها ، وهى أن ماء النيل أثمن شىء فى مصر ، أثمن من حديدها ومعادنها وذهبها وزيتها .

وما فتئنا نسمع من ربع قرن من الزمان أحاديث تستطيبها الأذن عن مشروعات النيل وضبط مائه والانتفاع بكل نقطة منه واستغلاله فى زراعة الصحراوات وو ... مما يروق لذوى الخيال الواسع أن يناقوا وراءه . ولو أننا حولنا بصرنا إلى غيرنا من الدول الزراعية ودرسنا أساليبها فى الزراعة وضبط الماء ، وقلدناهم فيما نجحوا فيه لكان لنا اليوم أن نفخر بنهر أصبحنا أسياده بعد ما كان سيدنا ، وتحكمنا فيه بعد ما ظل أربعة آلاف من السنين أو يزيد يشمخ بتحكمه فينا .

وقد احتفلت مصر فى الأسبوع الماضى بعيد وفاء النيل . وجدير بنا فى هذه المناسبة أن نعرض صفحة مما نهضت به دولة زراعية ، فرفعت مستوى المعيشة فيها وأصلحت أراضيها وزعمت الأمم الزراعية قاطبة .

* * *

هذه قصة نهر عظيم فى الولايات المتحدة يدعى نهر تنيسى Tennessee استطاع الأمريكيون أن يتحكموا فيه بعد ما كان يكتسح المحصولات والغابات ويخرب البيوت ، فأمكن الانتفاع به إلى أقصى حد ممكن ودرء خطره الذى كان يهدد الدور والحقول على ضفتيه .

يمتد نهر تنيسى من الشرق إلى الغرب فى المنطقة الوسطى من الولايات المتحدة ، وهو لا يبلغ فى طوله مبلغ نهر النيل لأن طول النهر الرئيسى ١٠٤٠ كيلو متراً بينما يزيد طول النيل على ستة آلاف من الكيلو مترات . غير أن الأراضى الصالحة للزراعة فى وادى تنيسى تبلغ مساحتها ١٠٥٫٠٠٠ كيلو متر مربع فى حين أن مساحة الأراضى الصالحة للزراعة فى مصر لا تزيد عن ١٣٫٦٠٠ ميل مربع . ونهر تنيسى ، على النقيض من نهر النيل الذى يخلو مجراه فى مسافة طولها ١٫٦٠٠ كيلو متر من الأنهار الفرعية ، غنى بمئات من الأنهار الصغيرة التى ترتفع فى الجبال فى هذه المنطقة من الولايات المتحدة . وحينما يهطل المطر الغزير

لأنفسهم أن ينتهكوا حرماتكم أو يسلبوكم حقوقكم ، أو ينتزعوا منكم دياركم وأموالكم ، بل عشتم وإياهم إخواناً متساوين فى الحقوق والواجبات ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى أو بعمل صالح .

لقد شيد العرب والمسلمون فى الأندلس حضارة قامت على دعائم الحكم الصالح والعلم النافع ، حتى سارت المنارة التى يشع منها نور المدنية والعرفان فى أسبانيا وسائر أنحاء أوربة ، فلم تنكرون عارفتهم ، ولم تجحدون فضلهم وهم أساس نهضتكم وقوام حضارتكم؟

ألا فاتركوا للمراكشيين بلادهم ، وارفعوا عنهم نير استعبادكم ، واعلموا أنهم أبناء أحرار لن يكفوا عن الجهاد ، ولن يرتضوا باستقلال بلادهم وحريتها بديلا ، ولسوف يبذلون كل مرتخص وغال ، ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم حتى ينالوا حقوقهم ويكتب لهم النصر المبين

وللحرية الحمراء باب ... بكل يد مضرجة يدق

وعلى الجامعة العربية أن ترفع الصوت عالياً بالدفاع عن العروبة والإسلام فى تلك البلاد ، فإن حقوق العرب والمسلمين لا تتجزأ ، وهى واحدة فى كل مكان ، فراكش والجزائر وغيرهما من البلاد المهيضة الجناح يجب أن تدخل فى نطاق الجامعة لترعى حقوقها وتذود جور القاسطين عنها ليكون التعاون شاملا ، وعمل الخير عاماً يشمل العرب والمسلمين أجمعين

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »

حسن أحمد الخطيب

فى الربيع ، تتلقى هذه الفروع وتفيض على شطآنها . وكما أن نهر النيل يخلف وراءه مقادير وافرة من الغرين يغذى التربة ويعززها ، فإن أنهر وادى التنيسى تخلف وراءها كذلك غريناً يهب الحياة للنباتات والنابات .

وكان موضوع ضبط نهر تنيسى والروافد التى تصب فيه أساساً لمشروع كبير يعرف اليوم باسم « إدارة وادى تنيسى »[1] وقد بلغ فى مايو الماضى العام الثانى عشر من حياته . وفى الواقع أن « الإدارة » مصلحة تابعة لحكومة الاتحاد . غير أنها تختلف عن سواها من المصالح الحكومية فى الولايات المتحدة لأن سلطتها تمتد إلى منطقة معينة من البلاد ، لا إلى البلاد بأسرها . والوادى الذى يشق نهر تنيسى طريقه فيه يقع فى أجزاء لسبع ولايات فى الجزء الأوسط من ولايات أمريكا المتحدة . وتلك الولايات هى : نورث كارولينا وفرجينيا وجورجيا وآلاباما ومسيسبى وكنتكى وتنيسى . وما مشروع وادى تنيسى إلا لاستثمار موارد منطقة كانت الأمطار الغزيرة تفسدها وكانت الفيضانات الكثيرة لأنهر كثيرة تصب فى وادى تنيسى فتخرب به وتزيل معالمه .

وفى مستهل المدة الأولى لرياسة الرئيس الراحل المستر فرنكلن روزفلت ، أثنى الرئيس على مشروع إنشاء إدارة وادى تنيسى وقال فى رسالته إلى الكونجرس فى ١٠ إبريل ١٩٣٣ : « إذا وفقنا فى هذا ، استطعنا أن نسير خطوة خطوة فى سبيل تحسين الموارد الطبيعية الأخرى الكبيرة داخل حدود بلادنا » . وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ ، وضع المستر روزفلت ستة مشروعات مماثلة لمشروع وادى تنيسى .

وتقوم مشروعات روزفلت السبعة جميعاً على مبدأ مشترك وإن اختلفت فى كيفية تطبيق هذا المبدأ فى المناطق المختلفة . ويتلخص المبدأ فى أن يطبق على مجال واسع وتتولى إدارته هيئة عامة تهدف إلى استغلال الموارد البشرية والطبيعية دون أن تتأثر بالميول الحزبية .

ويجرى نهر تنيسى وكبرلند فى منطقة مساحتها ١٠٥٫٠٠٠ كيلو متر مربع ، وعند المنبع فى جبال سموكى وبلورج Smoky and Blue Ridge يبعد نهر تنيسى من ارتفاع ٩٠٠ متر عن سطح البحر فى نقطة تنخفض إلى ٩٠ متراً فى ولاية كنتكى حيث يتصل بنهر أوهايو . ويعب نهر أوهايو بدوره فى نهر المسيسبى . ويقدر معدل هطول الأمطار فى السنة فى الوادى بنحو ١٣٢ سنتيمتراً ويبلغ الهبوط السنوى فى بعض الجهات ٢٠٠ سنتيمتر .

وفى يوم ١٠ ابريل ١٩٣٣ ألقى الرئيس روزفلت خطاباً فى الكونجرس ـ وقد أسلفنا الإشارة إليه ـ لخص فيه المزايا المنتظرة لمشروع وادى تنيسى فقال : « إن المشروع إذا نفذ بكليته سيؤدى حتماً إلى فوائد جمة ؛ فتروى الحقول التى تصل إليها مياه الفيضان ، ويمنع تآكل التربة وتعاد زراعة النابات ، ويؤدى إلى عدم إهمال زراعة الأراضى المتطرفة كما يؤدى إلى انتشار الصناعة وتنوعها . وبالإجمال فإنه يؤدى إلى استغلال جميع مرافق الولايات المتحدة لمصلحة الملايين من الأهالى فى جميع الولايات . كما أنه يبعث الحياة فى جميع مظاهر الحياة وكل ما يهم الإنسان » .

واقترح الرئيس لإنشاء إدارة وادى تنيسى إصدار تشريع لتأليف « هيئة لها سلطة كسلطة الحكومة وتتمتع بميزتى المرونة والتوثب شأنها فى ذلك شأن الهيئات الأهلية » . وقد وافق الكونجرس على مشروع قانون تأليف إدارة وادى تنيسى يوم ١٧ مايو ١٩٣٣ وذيله الرئيس روزفلت بإمضائه .

ونص فى ديباجة قانون إدارة وادى تنيسى على أهداف المشروع . ومن تلك الأهداف تحسين حالة الأراضى الزراعية والتحكم فى فيضان نهر تنيسى وإعادة زراعة النابات واستغلال الأراضى المتطرفة فى الوادى وتحسين حالة الزراعة والصناعة فيه . وخولت لها سلطة نزع ملكية الأراضى لبناء السدود والخزانات ومحطات توليد القوى وغيرها من المنشآت . وخول لإدارة وادى تنيسى الحق فى بيع ما يفيض من القوة الكهربائية إلى الشركات والأفراد والهيئات المختلفة فضلا عن الولايات والقاطعات ومجالس البلديات . وتكون الأولوية فى الشراء للولايات والقاطعات ومجالس المديريات .

ويستخدم فى الوقت الحالى ٢١ سداً لضبط الماء فى نهر

(١) Tennessee Valley Authority .

تنيسى . وقد نجحت تلك السدود فى جعل المنطقة مقراً لثانى محطة لإنتاج القوة فى الولايات المتحدة . وتتمتع ٨٥٫٠٠٠ مزرعة بمزايا الكهرباء ، أى بنسبة مزرعة واحدة تضاء بالكهرباء فى كل خمس مزارع ، وأصبح سكان الوادى يعيشون عيشة جديدة نسبة لاستمانتهم بالكهرباء . فأصبحت المزارع تستخدم المضخات الكهربائية بدلا من رافعات الماء الفطرية : (كالساقية والشادوف ...) وأصبح السكان يتمتعون بمزايا آلات تجفيف الطعام والثلاجات وتوفرت لهم آلات قطع الخشب وطحن البقول للماشية . وأصبح اللبن يوضع فى ثلاجات حديثة . وأنجى أعداد اللحوم وطفى الطعام لا يستغرق وقتاً طويلا . وأصبحت ربات المنازل يستطعن استخدام المدفآت الكهربائية وآلات كى الملابس الكهربائية وغيرها من الأدوات التى توفر الوقت والجهد والمال .

ولم تنجل آثار إدارة وادى تنيسى فى أى ميدان من ميادين الحياة كما تجلت فى ميدان الزراعة . فقد أمكن للادارة — بالتحكم فى مياه الفيضان والتغلب على تآكل التربة وتوفير مواد الفوسفات للتسميد — أن تجعل المزارع فى حالة رخاء لم يسبق لسكان الوادى عهد بها ، وأخذت المحصولات التى تسمى فى الولايات المتحدة « محصولات الزراعة » كالطباق والقطن والذرة مثلا أخذت تفسح المجال للبرسيم وفول الصويا وهما من المحصولات التى تكسب التربة غنى فى المواد العضوية . وأصبح من المألوف حرث الأراضى بالآلات التى تحرثها حرثاً منتظما يعمل على توقى تآكل التربة . وأخذ الفلاحون يقومون أفراداً بفلاحة سفوح التلال وإصلاح الأراضى البور . واستطاعت إدارة وادى تنيسى بمعاونة الهيئات الأخرى المتصلة بها أن تقنع الفلاحين فى الوادى بالإكثار من زراعة أنواع شتى من الخضروات لزيادة دخلهم وتمكينهم من شراء مزيد من الملابس وغيرها من ضرورات الحياة . واستطاع الفلاحون فى منطقة وادى تنيسى أن يستخدموا الكهرباء فى إدارة الآلات التى توفر العمال والوقت والمال . وشرعوا يتعلمون كيف يستطيعون توليد سلالات أفضل من الماشية وإنتاج أنواع ممتازة من الفاكهة والخضروات ، وهى جهود تهدف إلى إنتاج مواد منوعة غنية بالفيتامينات تقوّم صحة الفلاحين وعائلاتهم ، وتكسبهم مناعة وجلداً .

وانتشرت الصناعة فى الوادى بفضل إدارة وادى تنيسى . وزاد إنتاج الألومنيوم والفلز والدقيق والمواد الكيميائية اللازمة للحرب كنترات النوشادر وهى مادة هامة فى صناعة المفجرات القوية ، واستغل فى أثناء الحرب الأخيرة ٧٥ فى المائة من قوى إدارة وادى تنيسى فى إنتاج المواد الحربية .

وأنشئت إلى جانب هذا المشروع الضخم مشروعات أخرى تتصل بالحياة اليومية لسكان هذه المنطقة فضلا عن مشروعات توفر قوى كهربائية رخيصة وتحسن وسائل الزراعة والإنتاج الصناعى ، وشيدت آلاف من المنازل الرخيصة وانتشرت المعاهد واتخذت وسائل مكافحة الملاريا ، ونظمت الهيئات الجماعية للتسلية ، وأسست هيئة كبيرة للعناية بصحة سكان الوادى عناية تامة .

وأصبحت إدارة وادى تنيسى نموذجاً حياً للتنظيم الإقليمى ولفتت أنظار العالم كله . فزارها رجال من جميع بلدان العالم من مزارعين ومهندسين جاءوا ليتخصصوا فى أعمال الإدارة . وسعى مهندسو إدارة وادى تنيسى إلى بلدان أخرى ليقيموا فيها مشروعات مماثلة أو ليعاونوا فى حل مشكلات الزراعة وتوليد الكهرباء فيها .

وفى يونيو ١٩٤٣ كتب المستر جوليان هكسلى العالم البريطانى والكاتب المعروف مقالا قال فيه : « إن فكرة إدارة وادى تنيسى على أساس إقليمى — كاستغلال نهر فى واد مثلا — أصبحت فكرة يدين بها العالم أجمع . وإن آراء الإدارة ووسائلها تعمل على إرشاد هيئات جديدة مماثلة ونموها ... وأجريت دراسات ليمكن تنفيذ مشروع مماثل على نطاق دولى بدلا من النطاق الوطنى الضيق ، ومن شأن هذا المشروع الدولى أن يحد من سلطة دول العالم شأنه فى ذلك شأن إدارة وادى تنيسى التى تحد من سلطة الولايات وخاصة فيما يختص بالحقوق والحدود » .

وجاء فى ختام تقرير خاص يبحث فى موضوع الإدارة : « إن بيت القصيد فى مشروع وادى تنيسى ، أنه يوفر للرجال وسائل جديدة واقعية لاستخدام الموارد الطبيعية . كما أنه يهيئ لنا طريقة جديدة لمعالجة المشكلات المرتبطة بعضها ببعض الخاصة باستغلال الموارد الطبيعية التى تهم الجميع » .

وديع فلسطين